

إبراهيم بن محمد خلوفة المباركي

١٣٥٥ ـ ١٤٤٥هـ

إعداد:
أ.د. عبدالرحمن بن عمر المدخلي
كلية الشريعة والقانون بجامعة جازان

الاسم والنسب:

هو العالم العامل الزاهد العابد الورع فضيلة الشيخ أبو أحمد إبراهيم بن محمد بن خلوفة (الملقب طياش) بن محمد بن علي بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن عبدالله المباركي.

الولادة:

ولد في مدينة صامطة بمنطقة جازان عام ١٣٥٥هـ، وكان وحيد والديه، فلم يولد لهما غيره.

وقد توفي والده في وقت مبكر، والشيخ إبراهيم لا زال صغيرا.

أما أمّه فهي المرأة الدّيّنة العفيفة فاطم بنت محمد الحاج المباركي، لها أخوان وأختان أشقاء، هم: هادي، وعلي، وحَسِيْن، وليلى: (أم مصطفى بن علي مهدي البدري) أبناء محمد الحاج المباركي.

ولها أخوان وأخت لأب، هم: يحيى، وإسماعيل، وشريفة: (أم إسماعيل بن محمد حسن المدخلي) أبناء حسن القحطاني.

توفيت أم الشيخ إبراهيم في عام ١٣٨٢هـ، وحزن عليها كثيرا.

وللشيخ إبراهيم أخ لأم هو الشيخ أحمد بن محمد بن يحيى مذكور (وكيل المعهد العلمي في صامطة، توفي يوم عيد الأضحى عام ١٤٤١هـ).

النشأة:

نشـأ الشـيخ إبراهيـم يتيما، فكفلتـه أمّه واعتنت بتربيته والحرص عليـه، وكان لا يفارقها، حتى بعـد أن كـبر قليـلا، فكانـت تحمله وتذهب بـه معها لزيـارة الجيران والأقـارب، وقد ذكـرت لي أمّي ـ رحمهـا اللـه ـ أنهـا جاءت به معها ذات ليلة تحمله إلى بيتنا، وعند انصرافها رغبت في الحصول على احدى فسـائل شـجرة الفلّ (رديمة) لتكون لولدها إبراهيم.

وقد كان سـكنهم في حارة الراحة في وسـط مدينة صامطة، بجوار مسـجد الراحة والمدرسـة السلفية والمعهد العلمي سابقا.

التعليم:

كانـت بدايـات تعلمـه أنـه التحـق بحلقـة المعلـم الشـيخ محمـد بـن ماطـر رضـوان (تـوفي عام ١٣٨٢ هـ) فقـرأ عليـه القـرآن الكـريم وتعلـم بعضـ أساسـيات العلم.

ثـم التحـق بالمدرسـة السـلفية في صامطـة التـي أسسـها فضيلـة الشـيخ عبدالله بـن محمـد القرعـاوي (تـوفي عـام ١٣٨٩ هـ) في دار (عـمّ المترجـم لـه) فضيلـة الشـيخ المفتي ناصر بـن خلوفة المباركي (توفي عام ١٣٩٣ هـ)، فكان الشـيخ إبراهيم يَدْرُس في حلقة الصغار وكان يدرسـهم فيها الشـيخ محمد بن علي بن محمد الشـعبي (توفي عام ١٤٢١ هـ)، والشـيخ محمد بن سراج المباركي (توفي عام ١٤٣٠ هـ)، والشـيخ هادي بن حسـن شـرفي آل الهادي (توفي عام ١٤٤٢ هـ)، وغيرهم.

وقد لقي الشيخ إبراهيم الرعاية التامّة وتلقى التربية والعلم على يد عمّه الشيخ ناصر، فكان يهتـمّ بـه ويحرص عليه، وكان يهيئـه لأن يكون في مصافّ كبار الطلاب، وإذا غفل الشـيخ إبراهيم قليلا صاح الشـيخ ناصر: يا محمد علي شـعبي امسـك لي إبراهيم، يريد تأديبه بالضرب بالعصى!!

ولكـنّ إبراهيـم كان مؤدبا مهذبا لا يلهو مع الطلاب الصغار ولا يذهب معهم بعيدا.

وقـد درس علـى عمـه الشـيخ ناصر القـرآن والتجويـد والتفسـير والحديـث والفقـه والعقيدة، ودرس على الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي (توفي عام ١٣٧٧ هـ) في عدة فنون مع زملائه في تلك المدرسـة، وحفظ عددا من المتون العلمية. ودرس الفرائض وغيرها على المشـايخ.

ولـما كان يتمتـع بـه الشـيخ إبراهيم من علم وحكمة فقد كلّفه الشـيخ القرعاوي بالتدريس في هذه المدرسـة، فكان يدرِّس الطلاب أمثال الشـيخ عبدالله بن أحمد مصلح الشـعبي، والشـيخ علي

بن مجاهد العقيلي، فكان يدرسـهم في القرآن الكريم والتجويد والأربعين النووية والثلاثة الأصول وآداب المشـي إلى الصـلاة والأربع القواعد ونحو ذلك.

بداية العمل الوظيفي:

وحينما ظهر نجاحه في التدريس واستفادة الطلاب منه وحسـن أسلوبه معهم عيّن رسـميا في قرية الحضرور ـ الواقعة غرب مدينة صامطة ـ إماما ومدرسا وخطيبا بالقرار ذي الرقم ٧٥٥٥ المؤرخ في ١٨/٤/٢/١٣٧٢هـ ضمن اثنين وثلاثين شـخصا تم تعيينهم في عدة أماكن في منطقة جازان، وقد ذكرهم سيدي الوالد في كتابه النهضة الإصلاحية في الصفحة ١١١، لم يبقَ منهم حيّا إلا ثلاثة، هم: الشيخ علي بن موسى دلاك، كان قد عين في مركز الحقو، والشيخ علي بن أحمد طالبي المدخلي، كان قد عين في مركز القفل، والشيخ عبده بن موسى حيدر القبي، كان قد عين في مركز بلغازي، ختم الله لنا ولهم بالحسنى.

ثم سنحت للشيخ إبراهيم فرصة وظيفية في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في صامطة فالتحق بها عضوا في شهر جمادى الآخرة عام ١٣٧٣هـ، وهو أول تشكيل للهيئة في صامطة، وكان رئيس الهيئة آنذاك فضيلة الشـيخ علي بن حُمّد بن هادي العريشـي (توفي عام ١٤٢٤هـ) الذي كان يعمـل في هيئـة جازان وطلب النقل إلى هيئة صامطة، والأعضاء هم: الشـيخ ناصر بن خلوفة طياش المباركـي، والشـيخ يحيـى بن يحيـى دوم المدخلي (تـوفي عام ١٤٢٨هـ)، والشـيخ إبراهيـم بن خلوفة طياش المباركي (المترجم له، وهو أصغرهم سـنّا)، والشـيخ محمد بن علي شـعبي المباركي، والشـيخ محمد بن أحمد عتيق الدوسـري، والشـيخ عباس بن حمد هادي العريشي، كما ذكر ذلك سيدي الوالد في كتابـه النهضـة الإصلاحية في الصفحة ١٢٢.

وخـلال هـذه الفـترة كان الشـيخ عبداللـه القرعـاوي يرغب في ترشـيح الشـيخ إبراهيـم للقضاء كغيره مـن طلبـة العلم الذين رُشّـحوا؛ لكـن لم يتم ذلك، ولا أدري هل ذلك راجع لصـغر سـنّ الشـيخ إبراهيـم حيث لا زال في بدايـة العشـرينيات؟ أم لعـدم موافقته على ذلك بـرّا بأمّه.

وخـلال عملـه في الهيئـة التحق بالدراسـة في المعهـد العلمـي في صامطـة الـذي افتتحـه الملك سعود بن عبدالعزيز حينما زار صامطة بتاريخ ١٨/٢/٤/١٣٧٤هـ، وكان المعهد يقع في وسط مدينة صامطة، بين مسـجد الراحة ومنزل الشـيخ ناصر خلوفة مقرّ المدرسـة السلفية، وكان عدد طلابه عند افتتاحه سـتين طالبًا، فكان الشـيخ إبراهيم من أوائل الطلاب الملتحقين بالد راسة فيه؛ وكان المتقدمون

للدراسة في المعهد ـ في السنوات الأولى ـ يخضعون لمقابلات تحدد مستواهم العلمي وتحصيلهم الدراسي، مع اعتبارات أخرى مثل سنّ الطالب وذكائه؛ وبناء على ذلك يُلحق الطالب بالصفّ الذي يتناسب مع مستواه، فبعض الطلاب كان يُلحق بالصف الرابع أو الخامس من المرحلة الثانوية مباشرة، والبعض الآخر لابد أن يدرس السنتين التمهيدية (حيث كانت الدراسة في المعهد على مرحلتين: تمهيدية لمدة سنتين، وثانوية لمدة خمس سنوات).

وكان مدير المعهد العلمي فضيلة الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي، وحظي الشيخ إبراهيم بتلقي العلم على ثلّة من العلماء في المعهد العلمي منهم: الشيخ محمد بن أحمد الحكمي في العقيدة، والشيخ محمد صغير المحسن في الفقه، والشيخ أحمد بن يحيى النجمي في التاريخ والنحو، والشيخ حسين بن أحمد النجمي في التاريخ، وممن كان يدرس في المعهد في هذه الفترة الشيخ علي بن يحيى البهكلي، والشيخ موسى منقري، والشيخ محمد بن عثمان نجار المباركي (توفي عام ١٣٧٧ هـ)، والشيخ محمد الطيّب.

وقد كان من المدرسين في هذا المعهد ثلاثة مصريين من الأزهريين المتمكنين في العلم، هم: الأستاذ عبدالظاهر يدرِّس النحو والبلاغة، والأستاذ فكري عيطة، والأستاذ محمد شكري يدرِّس الجغرافيا، ومدرس سوداني، هو الأستاذ عبدالحميد ضوء البيت، وقد سألت الشيخ إبراهيم ذات مرة عنهم فأثنى عليهم وعلى علمهم، وذكر استفادته وزملاءه منهم، وذكرهم بخير ودعى لهم.

وقد حصل أن الشيخ إبراهيم تخلف ذات مرّة عن أداء الاختبار النهائي متهيبا من صعوبة الاختبارات ومتخوفا من أن تتدني درجاته في بعض المواد، وكان قد رسب غيره من الطلاب في مادة النحو (شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)، ومادة التقويم (الجغرافيا)؛ ولكن أصدقاءه الذين لحقوا به في المعهد مثل أخيه الشيخ أحمد بن محمد مذكور والشيخ عبدالله بن أحمد مصلح الشعبي شجعاه وأعاناه على حضور الاختبارات، فحضر واجتاز الاختبار بتفوق، وبهذا يكون قد أنهى دراسته في المعهد، وذلك عام ١٣٨٠ هـ.

الزواج الأول للشيخ:

خلال هذه الفترة تزوج الشيخ إبراهيم زوجته الأولى أم أحمد ابنت الشيخ محمد بن أحمد مساوى المباركي، وهي من أسرة عالية النسب رفيعة الحسب ذائعة الصيت، وكان جدّها ووالدها وعمها في منصب (شيخ الشمل).

وكانت أم أحمد تسكن مع أهلها في قرية أبي حجر، وقد تزوجها الشيخ إبراهيم وهي صغيرة وكان يذهب كل ليلة على حماره من صامطة إلى أبي حجر، ثم نقل زوجته لتسكن مع أمّه في بيته الواقع غرب مسجد الراحة مباشرة.

دراسته الجامعية:

وبعد انتهاء الشيخ إبراهيم من دراسته في المعهد العلمي سافر إلى مدينة الرياض برفقة زميليه الشيخ أحمد بن محمد مذكور والشيخ عبدالله بن أحمد مصلح، وكان سفرهم بالسيارة من صامطة إلى جيزان (والطريق ترابية تستغرق قرابة ثلاث ساعات)، ثم بالطائرة من جيزان إلى جدة، ثم ذهبوا إلى مكة المكرمة للعمرة، وهي أول عمرة لهم، وبعد ذلك ركبوا في الباصات الكبيرة إلى الرياض عبر طريق برّي شاقّ يضلّ فيه المسافرون.

وكان أولياء الأمور خائفين على أولادهم من هذا السفر البعيد، الذي لم يتعودوا عليه، حتى أن بعض الآباء رافق ولده إلى أثناء الطريق، فقد ذهب الشيخ أحمد بن مصلح الشعبي مع ولده عبدالله إلى جيزان يودعه، وذهب الشيخ حسن بن محمد الشعبي مع ولده إبراهيم إلى الرياض وبقي عنده فترة!!

وقد كان هذا السفر لأجل مواصلة الدراسة الجامعية، فالتحق الشيخ إبراهيم بكلية الشريعة، وكان قد سبقه عدد من زملائه في المعهد ومن أهالي صامطة الذين التحقوا بكلية الشريعة أو كلية اللغة العربية، مثل: الشيخ محمد بن عبده جابر المدخلي، والشيخ أحمد بن عبده جابر المدخلي، والشيخ علي بن علي صديق العريشي (توفي عام ١٤٣١ هـ)، والشيخ زيد بن محمد المدخلي (توفي عام ١٤٣٥ هـ)، والشيخ إبراهيم بن حسن الشعبي (توفي عام ١٤٣١ هـ)، ولحق بهم بعد ذلك بفترة مجموعة، منهم الشيخ العباس بن أحمد عبدالفتاح الحازمي، والشاعر الكبير حسن بن علي أبوطالب القاضي، والشيخ حجاب بن يحيى الحازمي، والشيخ محمد بن أحمد مصلح الشعبي.

وفي هذه المرحلة تفتحت مداركهم وزادت معارفهم وتوسعت ثقافتهم، حيث كان يدرسهم في كلية الشريعة عدد من كبار العلماء، مثل: فضيلة الشيخ الفقيه صالح العلي الناصر (توفي عام ١٤٠٦ هـ)، وفضيلة الشيخ عبدالرزاق عفيفي (عضو هيئة كبار العلماء فيما بعد، توفي عام ١٤١٥ هـ)، وفضيلة الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن الغديان (عضو هيئة كبار العلماء فيما بعد، توفي عام ١٤٣١ هـ).

وكان الشيخ إبراهيم سؤولا عن كل ما يعرض له في الدروس أو كتب أهل العلم، ومن المواقف

التي يذكرها زملاؤه له، أنه سأل فضيلة الشيخ عبدالله بن غديان عن مسألة علمية، فقال الشيخ عبدالله: سأراجعها في كتب العلماء وآتيكم بالجواب بإذن الله، ومرة أخرى تقدم الشيخ إبراهيم بسؤال علمي لأستاذ آخر، ولم يعرف الأستاذ الجواب، فغضب على الشيخ إبراهيم وتكلم عليه أمام زملائه بغير حقّ!!

وكان غالبية هؤلاء الطلاب القادمون من صامطة متفوقين وجادّين في الطلب، وذلك بفضل الله وتوفيقه ثم بفضل ما تلقوه من العلوم الشرعية وما حفظوه من المتون في سنّ مبكرة، وكانوا يتنافسون على التفوق والمراكز المتقدمة، ولا يستطيع أحد أن ينافسهم إلا العدد القليل.

وهناك سكن الشيخ إبراهيم مع مجموعة من زملائه في مدينة الرياض في حيّ العود، هم: الشيخ إبراهيم بن سير المباركي (التحق بالدراسة متأخرا، لأنه كان موظفا في القطاع العسكري، توفي عام ١٤٤٣ هـ)، الشيخ إبراهيم بن حسن الشعبي، والشيخ عثمان بن حُمّد نجار المباركي (توفي عام ١٤٢٠ هـ)، والشيخ أحمد بن محمد مذكور، والشيخ عبدالله بن أحمد مصلح الشعبي.

وكانوا يسكنون في بيوت طينية قديمة، ويتناوبون في الطبخ.

وبعد مضي قرابة السنة وهم في الرياض سمعوا أنه حصل اعتداء من الطيران المصري على الحدود السعودية اليمنية، وهرب السكّان من قصف الطائرات، وذلك في منتصف شهر ربيع الأول عام ١٣٨٢ هـ، فخاف هؤلاء الطلاب على أهاليهم، واستأذنوا مدير عام المعاهد العلمية والكليات فضيلة الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم آل الشيخ (توفي عام ١٣٨٦ هـ) في السفر إلى جازان فأذن لهم، وأمر لهم بصرف ثلاثة رواتب مقدما، وغادروا الرياض على سيارات الأجرة الكبيرة، ووصلوا إلى جازان بعد عدة أيام، واطمأنوا على أهاليهم.

ويقال بأن الشيخ إبراهيم رأى في المنام وهو في الرياض أن بيته في صامطة (عُشّة من القَشّ) قد سقط على أهله، فانزعج لهذه الرؤيا.

وحينما وصل إلى صامطة وجد أمّه مريضة، وما لبثت أن ماتت بعد وصوله.

فبقي بعد وفاتها وقتا قصيرا ثم أخذ زوجته وأطفاله الثلاثة: زهراء وأحمد ومحمد وسافر بهم معه إلى الرياض وذلك عام ١٣٨٢ هـ، وسكن بهم في بيت من الطين، ولحق بهم في هذا السكن أخاه أحمد مذكور وزوجته، وخالهما علي حاج المباركي، وكانوا كلهم في هذا البيت!!

وبقي في الرياض إلى أن أكمل دراسته الجامعية، وهناك ولد له: فاطمة وحسن، وألحق ولده

أحمد بالصف الأول الابتدائي.

وقد عمل الشيخ إبراهيم خلال هذه الفترة إماما لأحد المساجد في حيّ منفوحة لمدة ثلاث سنوات، وكانت وظيفة رسمية آنذاك.

الترشيح لمنصب القضاء:

ما إن اقترب الشيخ إبراهيم من إكمال دراسته الجامعية حتى كانت عيون مشايخه ومعلميه ترمقه لترشيحه لمنصب القضاء، وذلك لتفوقه العلمي وسمته وأدبه وأخلاقه وورعه، وقد تردد في الموافقة كثيرا، واستخار الله واستشار؛ وكان كل من حوله من المشايخ والزملاء يشجعونه على ذلك.

وقد كان الطالب الذي يرَشَّح للقضاء تُحتجز شهادته في الكلية ولا تسلم له حتى يراجع رئاسة القضاء لدى رئيسها مفتي المملكة العربية السعودية فضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (توفي عام ١٣٨٩ هـ)، وكان رجلا مُهابا، وقد ذهب الشيخ إبراهيم ومعه آخرون ممن رشحوا للقضاء رجاء الانفكاك من هذا الترشيح، منهم: الشيخ عبدالله بن أحمد مصلح الشعبي.

فأما الشيخ عبدالله الشعبي فقد جادل فضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم وقال له: ياشيخ محمد أنا لا أصلح للقضاء!! وبعد عدة محاولات وإصرار وافق الشيخ محمد على ترشيحه سكرتيرا قضائيا، وفرح الشيخ عبدالله بالسلامة من القضاء.

وأما الشيخ إبراهيم فلم تفلح كلّ اعتذاراته، وقد قال له الشيخ محمد بن إبراهيم: لو أفكّ كلّ هؤلاء ما فككتك من القضاء!! فأيس الشيخ إبراهيم من الفكاك، ووافق على مضض.

وقد عيّن من هذه الدفعة من أبناء منطقة جازان في منصب القضاء فضيلة الشيخ منصور بن حمود بن حمود آل خيرات (عضو محكمة التمييز بمكة فيما بعد، توفي عام ١٤١٩ هـ)، وفضيلة الشيخ محمد سعودي بن علي حمدي، وقد نجى فضيلة الشيخ محمد شريف بن محمد هاشم (توفي عام ١٤٢٣ هـ) من القضاء وعيّن في كتابة العدل.

العودة إلى جازان:

من تيسير الله للشيخ إبراهيم أن ترشيحه كان على منطقة جازان مباشرة، فصدر قرار تعيينه قاضيا في المحكمة الكبرى بجازان (المحكمة العامة) عام ١٣٨٦ هـ، وكان النظام آنذاك أن

يلازم المعين لدى أحد أصحاب الفضيلة القضاة السابقين لفترة لا تزيد على ثلاثة أشهر ثم يستقلّ بعدها بمكتب قضائي منفرد.

زواجه الثاني:

بعد فترة وجيزة من رجوعه تزوج الزوجة الثانية، وهي أم ناصر ابنت عمه فضيلة الشيخ ناصر بن خلوفة المباركي، وهذه أسرة عريقة النسب، أهل علم وحكمة، ذات مكانة اجتماعية ووجاهة، ويكفي هذه الأسرة فخرا أنها احتوت فضيلة الشيخ القرعاوي من أول مجيئه إلى المنطقة، وفتح له فضيلة الشيخ ناصر داره، وأنفق ماله، وسخر كلّ ما يملك لطلاب العلم، ومن قعر بيته انطلقت الدعوة إلى الله تعالى.

وكان الشيخ ناصر يرغب أن يزوّج ابن أخيه الشيخ إبراهيم لإحدى بناته من وقت مبكر؛ إلا أنه لم يكن لديه ابنة كبيرة في أول الأمر، وبعد أن شبّت ابنته البكر، ووصل عمرها حوالي السادسة عشرة عاما دعى الشيخ محمد بن علي الشعبي وتشاور معه في تزويج الشيخ إبراهيم؛ لكن الشيخ إبراهيم كان مترددا بسبب ضيق ذات اليد آنذاك، حيث أنه التحق بالوظيفة منذ بضعة أشهر، والزواج يحتاج إلى نفقات، فتمّ رأي الشيخ محمد الشعبي أن يذهب مع الشيخ إبراهيم إلى عمه الشيخ ناصر ويعتذر منه، وذهبا بعد صلاة المغرب إلى الشيخ ناصر، وتحدثا معه، وقال الشيخ محمد الشعبي: يا شيخ ناصر إن الأخ إبراهيم خلوفة يعتذر منك فهو لا يريد الزواج خلال هذه الفترة؛ ولكن إذا توسعت حالته المادية سينظر، فالتفت إليهم الشيخ ناصر وقال: عسى أنا أريد تزويج إبراهيم خلوفة لأجل ماله؟! اعقد له يا شيخ محمد الشعبي، اعقد له وإلا عقدت له أنا، فقال الشيخ محمد الشعبي: إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا....... وعقد له في نفس المجلس، وبعد ذلك استأذنوا في المغادرة، فقال الشيخ ناصر: أما أنت يا شيخ محمد فحفظك الله، وأما إبراهيم خلوفة فلا يذهب، فالبيت بيته وزوجته بانتظاره، وعلمت زوجته الأولى (أم أحمد) بزواجه ـ حيث كانت بيوتهم متقاربة في حيّ واحد ـ فلم تغضب، وتقبلت ذلك بصدر رحب، بل وأرسلت له باللحاف الذي ينام فيه!!

وبعد أن أتم الشيخ إبراهيم فترة الملازمة القضائية صار يقضي بين الناس استقلالا.

وهذه المحكمة قد قضى فيها عدد من أصحاب الفضيلة من نوابغ منطقة جازان، ولم يجتمعوا في وقت واحد؛ لكنهم كانوا خلال فترة قضاء فضيلة الشيخ إبراهيم خلوفة، وكان يسود بينهم الإخاء

والمحبة والمشورة والتناصح والتعاون، منهم: فضيلة الشيخ علي بن مديش البجوي (عضو مجلس الشورى فيما بعد، توفي عام ١٤٣١هـ)، وفضيلة الشيخ أحمد بن محمد بشير معافا، وفضيلة الشيخ محمد بن علي بشير الضمدي، وفضيلة الشيخ علي جردي الضمدي، وفضيلة الشيخ محمد بن علي صلوي (توفي عام ١٤٢٩هـ)، وفضيلة الشيخ علي بن شيبان العامري، وفضيلة الشيخ عبدالله بن أحمد شار زكري (المتوفى عام ١٤٣٣هـ)، وفضيلة الشيخ إبراهيم حمادي زولي، وكان قد سبق هذه الثّلة المباركة عدد من القضاة الذين قضوا في هذه المحكمة من أهالي جازان، في مقدمتهم فضيلة الشيخ علي بن محمد صالح عبدالحق (توفي عام ١٣٩٨هـ)، وفضيلة الشيخ عبدالله بن أحمد مطهر.

وكان معهم في المحكمة كتاب ضبط وإداريون عونا لهم، مثل: الشيخ هادي بن علي فقيه المدخلي (توفي عام ١٤٣٥هـ)، والشيخ محمد بن علي بن محمد صالح عبدالحقّ (توفي عام ١٤٣٥هـ)، والشيخ علي بن إبراهيم يحيى الحملي (توفي عام ١٤١٤هـ)، والشيخ محمد بن عبدالرحمن الدريبي، والشيخ محمد بن ناصر خلوفة المباركي وكانوا إذا رأوا أن القاضي اجتهد في حكمه وحكم بغير الأولى، أو علموا بعض الملابسات في القضية لم يطلع عليها الشيخ بادروا إلى نصيحته، وبيّنوا له وناقشوه؛ حتى ربما وصل الأمر إلى نقاش علمي حادّ، وقد ذكر لي الشيخ إبراهيم أن كاتب الضبط الشيخ هادي بن علي فقيه المدخلي كان يشير عليه بشيء من ذلك - في غير حضرة الخصوم - وربما أن الشيخ إبراهيم لم يقتنع بتلك المشورة، فيترك الشيخ هادي الكتابة ويضع القلم ويغلق دفتر الضبط ويخرج من المكتب، وقد يذهب لصلاة الظهر ثم ما يلبث أن يعود إلى المكتب ويعود النقاش إلى أن يقتنع أحدهما برأي الآخر، وكان الشيخ إبراهيم لا يأنف من العودة إلى الحق حينما يأتي من غيره، بل ويخبر الناس بذلك اعترافا منه بالفضل لغيره.

وقد كان بين هؤلاء زيارات ولقاءات أخويه، ومن العجائب أن الشيخ هادي فقيه المدخلي بقي فترة مريضا في البيت، فقال ذات مرة لأولاده: اذهبوا بي لزيارة أخي إبراهيم، فبدأ أولاده يهيئونه للذهاب، وبينما هم كذلك إذْ طُرق الباب، فقالوا من بالباب؟ فقال: إبراهيم خلوفة!! فتعجبا من هذه الموافقة.

وقد رأيت الشيخ إبراهيم يوم وفاة صديقه الشيخ هادي فقيه عام ١٤٣٥هـ وهو يبكي ويدعو له ويقول: هذا أخي هذا أخي، نعم الرجل الصالح الناصح الصادق الأمين.

وكان الشيخ إبراهيم محمود السيرة في القضاء، وكان حازما عادلا متأنيا في إصدار الأحكام.

ومن سيرته في القضاء أنه كان يجنح إلى الصلح بين الخصوم خاصة إذا كان الخلاف بين القرابة، وبعد أن يثبت الحكم القضائي ينصح المتخاصمين ويرشدهم ويدعو لهم، وكان لا يتهاون في التعدي على محارم الله، فقد حكم مرات عديدة في قضايا الحدود والقتل والتعزير البليغ.

ومن سيرته في القضاء أنه كان نزيها ورعا بعيدا عن كل أمر فيه شبهة أو شك، وكان لا يخالط أرباب المال والتجار ولا يتطلع إلى ما عندهم، بل ولم يدخل في صفقات تجارية معهم.

وكان يبذل علمه وخبرته لجميع القضاة مع أدب جمّ وتواضع، خاصة أولئك الذين عُيّنوا بعده، وحينما كان فضيلة الشيخ محمد بن محمد شريم الشعبي (عضو المحكمة العليا حاليا) رئيس محكمة محافظة الدرب في منطقة جازان آنذاك؛ كان يأتي إلى الشيخ إبراهيم في جيزان يستشيره في بعض القضايا والأحكام، ويتناقشان في بعض المسائل العلمية.

وقد لازم عند الشيخ إبراهيم عدد من القضاة واستفادوا منه ومن طريقة تعامله مع القضايا وبحث مسائلها وإدارته للجلسات وصياغته للأحكام، وقد ترقوا في سلك القضاء حتى صار بعضهم عضوا في المحكمة العليا بمرتبة رئيس محكمة استئناف، مثل فضيلة الشيخ أحمد بن مقبول الحكمي، وبعضهم رئيس محكمة استئناف، مثل فضيلة الشيخ علي بن شيبان العامري، وبعضهم صار عضو استئناف، مثل فضيلة الشيخ حسن بن إبراهيم النجمي، وكل من لازم عند الشيخ إبراهيم أثنى على حسن تعامله، وبذله للعلم، وتقديم الخبرة.

التفتيش القضائي:

كان القضاة في محكمة الاستئناف يقدرون الشيخ إبراهيم ويثنون على أحكامه؛ بل ويثقون فيه فينتدبونه للتفتيش على قضاة بعض المحاكم الكبرى، فقد انتدب ذات مرة للتفتيش على قضاة محاكم منطقة حائل، وقضاة محاكم منطقة القصيم، وقضاة محافظة الدوادمي وقضاة محافظة عفيف بمنطقة الرياض، وكان مرافقا له ابن عمّه الشيخ محمد بن ناصر خلوفة المباركي، ومعهما شخصان آخران، وقد كان سفرهما عن طريق البرّ، وقد أخذ الشيخ معه في السيارة السمن والعسل وبعض ما يحتاجه للأكل، واشترى من هناك البُرّ، وذلك حتى لا يضطر للضيافة لدى أحد ممن يفتّش عليهم، يقول مرافقه الشيخ محمد بن ناصر: فكنّا نعصد البرّ ونضع عليه العسل والسمن، وهو معتكف على سجلات المحاكم التي يفتش عليها، يقرأها ويكتب ملاحظاته عليها، وقد استمرت رحلتهم أكثر

شـهرين، ولمّا رجع كتب تقريرا متكاملا وأرسـله لمجلس القضاء آنذاك.

محبة أهالي جازان للشيخ:

وكان أهالي مدينـة جيـزان يثقـون في الشـيخ إبراهيم وفي أحكامـه ويأتون إليـه للفصل بينهم في غـير أوقـات الـدوام الرسـمي فإما صلّوا معه في المسـجد وإما طرقوا عليه البـاب، وذات مرة جاء شخص في وقت متأخر من الليل وطرق الباب فأجابه أحد أبناء الشيخ وقال له: إن الوقت متأخر وربما أن الشـيخ نائـم، فسـمع الشـيخ إبراهيم صوت الطارق فنـادى على ابنه: افتح الباب وأدخله المجلس وسـآتيه الآن، ثم خرج الشـيخ إلى هذا الطارق، فإذا هو شـخص بينه وبين أخيه خصومة على أرض، فسـمع الشـيخ منه شـكواه كاملة، وعرف ملابسات قضيته، ثم قال له: ألا أرشدك إلى ما هو أفضـل لـك في الدنيـا والآخـرة، وخير لكمـا من التنـازع والتهاجر، وزيادة لـك في الأجر؟ فقـال الرجل: دلني ياشيخ على الذي ترى فيه الخير، فقال له: أرى أن تبادر بالتنازل لأخيك فهو خير لك وله، فقال: وأنا متنـازل لوجه الله، وسـآتيك غـدا في المحكمة لتثبت تنازلي في المحكمة.

ويذكـر الشـيخ عبداللـه بـن أحمد الشـعبي أن زوجين وقـع بينهما خصـام، واتفقـا على الذهاب إلى بيـت الشـيخ إبراهيـم ليفصـل بينهمـا، وحضـرا وكان الحقّ للمـرأة، فأصلح بينهما الشـيخ إبراهيم على أن يدفع الزوج لزوجته مبلغا من المال، فقال الزوج: ليـس عندي شـيء من المال!! فدعاه الشـيخ إبراهيـم إلى خـارج الغرفـة وأعطاه مالا وقـال له: أعطه لزوجتك، ففعـل، وانصرفا وقد اصطلحا.

وكان أوسـاط الناس في جيزان لا ينادونه إلا بـ(أبويه إبراهيم) تقديرا له وتوقيرا.

الإمامة والخطابة:

كان الشـيخ إبراهيـم يرشـح مـن يثق فيهـم لإمامة المسـاجد والخطابة فيها بخطاب رسـمي من المحكمة، وأذكر أنه كتب لي ترشيحا بذلك عام ١٤١٠هـ بخطاب وجهه إلى مدير الأوقاف والمساجد بجازان آنذاك الشيخ موسى بن أحمد أبوالخير (توفي عام ١٤١٥هـ)، وذكر لي فضيلة الشيخ محمد بـن حجر الظافري أنه كتب له ترشـيحا بذلـك في عام ١٣٨٧هـ

وقـد كلـف الشـيخ إبراهيـم فترة سـكنه في جيـزان بالإمامـة والخطابة في جامع زعقـان في حيّ العشـيما، فقـام بالجامـع خير قيـام، وكان لا يتخلف عن المسـجد إلا لعذر قاهر، وكان صديقه الشـيخ محمـد بـن علـي الشـعبي يرغبه في الذهاب إلى مكـة والاعتكاف في الحرم في شـهر رمضان؛ وكان

الشيخ إبراهيم يرغب في ذلك؛ لكنه لا يذهب، ويقول له: يا شيخ محمد أنا في جيزان أقوم بعمل واجب، وذهابي للاعتكاف في مكة نافلة، ولا أقدم النافلة على الواجب!! ويسّر الله بعد ذلك انتقاله إلى مكة مع ترقية وتكريم.

كما كان الشيخ إبراهيم يهتم بخطبة الجمعة في هذا الجامع ويحضّر لها، ويطرق الموضوعات النافعة للناس، ولا يطيل فيها، وكان الجامع يضيق بالمصلين فيضعون فرشا في باحته الخارجية، وتمتلئ الباحة أيضا.

وكان يعمره بقيام الليل في رمضان، ويطيل القراءة والصلاة، وكان يقرأ حدرا، ويختم ختمتين في التراويح والقيام، وبعض السنوات يشرع في قراءة الختمة الثالثة، والناس ترغب في الصلاة خلفه، ويكثر جمعهم.

وكان يأتي ببخور العود كلّ ليلة من بيته ويطيّب المصلين والمسجد.

وقد بقي إماما وخطيبا في هذا الجامع إلى أن صدر نقله إلى محكمة التمييز في مكة عام ١٤١٠هـ، وخلفه مباشرة صديقه الشيخ عبدالله بن أحمد مصلح الشعبي فعيّن إماما وخطيبا، وبقي إلى أن هدم هذا الجامع عام ١٤٤٤هـ.

جمعية تحفيظ القرآن الكريم:

من أعمال الشيخ إبراهيم الجليلة الخالدة في منطقة جازان عنايته بجمعية تحفيظ القرآن الكريم، حيث تفيد الوثائق أن نواة الجمعية في المنطقة كان عام ١٣٨٥هـ، وكان هناك حلقات متفرقة، فكلِّف الشيخ إبراهيم بإدارة الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمنطقة جازان، فكان أول رئيس لأول مجلس إدارة للجمعية بمنطقة جازان، واستمرّ رئيسا للمجلس إلى تاريخ ترقيته وانتقاله إلى مكة المكرمة.

وقد كان تشكيل مجلس الإدارة الرسمي يضم عددا من المشايخ والأعيان، هم:

الشيخ إبراهيم بن محمد خلوفة طياش، رئيس المجلس.

الشيخ عيسى بن محمد عيسى شماخي، نائب الرئيس.

الشيخ عبدالله بن أحمد مصلح الشعبي، أمين الصندوق.

الشيخ إبراهيم بن محمد إسماعيل فقيه، عضو.

الشيخ حسن بن حمود بشير، عضو.

الشيخ أحمد بن يحيى النجمي، عضو.

الشيخ العباس بن أحمد عبدالفتاح الحازمي، عضو.

الشيخ زيد بن محمد هادي المدخلي، عضو.

الشيخ علي بن أحمد علوش المدخلي، عضو.

الشيخ علي بن حسن الحازمي، عضو.

الشيخ علي بن شيبان العامري، عضو.

الشيخ محمد بن علي مسملي، عضو.

الشيخ محمد بن حسن الحازمي، عضو.

الشيخ هادي بن محسن جردي المدخلي، عضو.

وقد توسعت الجمعية خلال هذه الفترة، وازدادت حلقاتها، وتم استقطاب عدد من المحفِّظين، وكان الشيخ إبراهيم ومن معه في مجلس الإدارة يقومون بأنفسهم بزيارة حلقات تحفيظ القرآن الكريم في مدن وقرى المنطقة، ويذهبون إلى المناطق الجبلية على سياراتهم الخاصة، احتسابا لوجه الله، ولا يتقاضون على ذلك أي مقابل، وخلال تلك الفترة امتلكت الجمعية بعض العقارات وحصلت على بعض الأوقاف التي لها ريع.

وقد خرّجت الجمعية خلال تلك الفترة عددا من الحفّاظ من شباب المنطقة، وكانت تقام لهم حفلات تكريم بحضور معالي أمير منطقة جازان محمد بن تركي السديري، في جامع زعقان (الجامع الذي يؤم فيه الشيخ إبراهيم)، وذات مرة دخل معالي الأمير إلى الجامع ورأى بعض الصحفيين يصورون فقال لهم: لا تصوروا، الشيخ إبراهيم ما يحب التصوير!!

وكان الشيخ إبراهيم يجتمع بمجلس الإدارة بصفة دورية لعرض الموضوعات عليهم وإبداء الرأي حولها، وإذا كان بداية العام نادى محاسب الجمعية وناوله مبلغ العضوية السنوي الخاص به، وذلك أمام أعضاء المجلس حتى يقتدوا به في المبادرة في دفع المبالغ الخاصة بهم.

وقد كان الشيخ إبراهيم حريصا على أموال الجمعية أشد الحرص فلا يوافق على صرف شيء منها إلا بعد تدقيق واحتياج فعلي، وحينما كانت الجمعية بجازان تتلقى دعوات من جمعيات التحفيظ المماثلة في المملكة لحضور حفلات تخريج الحفاظ التي تقام سنويا في مناطق المملكة، كان الشيخ إبراهيم يعرض أي دعوة تصل إليه على أعضاء مجلس الإدارة، ويقول لهم: جاءتنا دعوة

من الجمعية الفلانية لحضور الحفل، فمن يريد الذهاب معي إلى المنطقة الفلانية؟ فأنا سأذهب على حسابي الخاص!!

وذات مرة ذهب الشيخ إبراهيم لحضور حفل الحفّاظ في الرياض بصفته رئيسا لجمعية جازان، ورافقه الشيخ محمد بن الحسن الحازمي، والشيخ عيسى بن محمد شماخي، ودفع كل واحد منهم قيمة تذكرته وإقامته من حسابه الخاص.

ترقيته إلى عضو تمييز (عضو استئناف):

بقي الشيخ إبراهيم في القضاء في جيزان ربع قرن من الزمن، تدرج خلالها في المراتب القضائية إلى أن وصل إلى مرتبة (رئيس محكمة أ)، وكلف مساعدا لرئيس محاكم منطقة جازان سنوات عديدة، وبقي إلى أن صدر قرار ترقيته إلى قاضي تمييز (قاضي استئناف) في محكمة التمييز في مكة المكرمة، وكانت مباشرته في شهر شوال عام ١٤١٠هـ، وكان أغلب القضاة يحبون الترقية على محكمة التمييز في مكة دون غيرها لقداسة المكان.

وحينما صدر قرار ترقية الشيخ إبراهيم إلى محكمة التمييز بمكة باع مزرعته وبعض الأراضي الأخرى التي يملكها في منطقة جازان واشترى منزلا واسعا في مكة المكرمة، وانتقل بجميع أسرته إلى هناك، ليبدأ حياة جديدة في جوار الحرم المكي.

وعمل هناك مع عدد من أصحاب الفضيلة في تمييز الأحكام، وكان شديد التحري والتدقيق، ومراجعة المسائل والتروي فيها، وقد كلف بالعمل في الدائرة الحقوقية، ومعه في هذه الدائرة معالي الشيخ عبدالله بن سليمان بن منيع (الذي عين بعد ذلك عضوا في هيئة كبار العلماء، ومستشارا في الديوان الملكي)، والشيخ محمد بن ظافر الحقباني.

وقد تعاقب على رئاسة محكمة التمييز في تلك الفترة عدد من كبار القضاة، منهم: فضيلة الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام (عضو هيئة كبار العلماء، توفي عام ١٤٢٣هـ)، وفضيلة الشيخ شافي بن ظافر الحقباني (عضو المحكمة العليا)، والشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز الكُليّة (رئيس المحكمة العليا، عضو هيئة كبار العلماء فيما بعد)، والشيخ عبدالمحسن بن عبدالله الخيال.

وكان من القضاة في هذه المحكمة من منطقة جازان فضيلة الشيخ حسن بن زيد النجمي (توفي عام ١٤٢٧هـ)، وفضيلة الشيخ منصور بن حمود بن حمود آل خيرات (توفي عام ١٤١٩هـ)، وفضيلة الشيخ علي بن قاسم الفيفي (توفي عام ١٤٤٠هـ)، ولحق بهم فضيلة الشيخ محمد بن

محمد حجر الظافري، وغيرهم ممن لا أتذكره الآن.

وقد كانت هذه المحكمة تُميّز الأحكام الصادرة من محاكم المنطقة الغربية ومنطقة المدينة المنورة ومنطقة جازان ومنطقة عسير ومنطقة الباحة ومنطقة نجران ومنطقة تبوك وكان العمل ضخما، فلأجل ذلك كان الشيخ إبراهيم يأتي إلى الدوام مبكرا ـ كما هي عادته من قبل ـ ولا ينصرف إلا متأخرا، ثم يعود أحيانا بعد العصر وربما بقي إلى العشاء.

ومن فضل الله أن ترقية الشيخ إبراهيم هذه وافقت ترقية صديقه الحميم فضيلة الشيخ حسن بن زيد النجمي، فقد جاءت ترقيتهما في وقت واحد، وفرح كل منهما بالآخر، لأنهما درسا في مدرسة واحدة وتلقيا العلم على نفس المشايخ، مع فارق السنّ، حيث أن فضيلة الشيخ حسن يكبر الشيخ إبراهيم بأكثر من عشر سنوات، فكان كل منهما يستشير الآخر ويأنس إليه في أخوّة نادرة وتوافق وصدق، ومن العجب أن تتفق وفاة كلّ منهما في يومِ جمعةٍ في شهر ربيع الأول!!

وكان الشيخ إبراهيم يأتي إلى منطقة جازان بين الحين والآخر لزيارة أهله وذويه، وإذا جاء إلى صامطة مرّ على مشايخه وأقاربه، وكان يأتي لزيارة والدي ويمكث عنده ويتحدث معه، وذات مرّة خرجت أودعه بعد زيارته للوالد، فقال لي: أنا أحبّ والدك، لأنه مُرَبِّي صادق، ومن قدامى المشايخ الأوفياء، ولقد نصحني ذات مرة نصيحة وأنا شابّ، ولم أنسها إلى الآن، وجعل يدعو للوالد ويثني عليه.

تقاعده عن العمل القضائي:

استمر الشيخ إبراهيم في عمله في محكمة الاستئناف بعمل دؤوب، إلى أن حان موعد تقاعده النظامي، وذلك في ١/٧/١٤٢٥هـ وقد فرح بتقاعده وانتهاء فترة عمله، لأنه كان يرهق نفسه في العمل، ويرى أن أداء عمله أهم من صحته وحاجاته الشخصية.

وقد حُسبتْ له خدماته الوظيفية فزادت على أربعين عاما؛ لكن حُسب له لأجل الراتب التقاعدي أربعون عاما فقط، فضلا عن سنوات الخدمة التي كانت قبل توليه القضاء في التدريس وهيئة الأمر بالمعروف.

وقد عرض عليه رئيس محكمة التمييز الرفع له للتعاقد معه فرفض، وكلما استشاره أحد من قرابته في الالتحاق بالقضاء لم يشر عليه، ويقول له: يكفي من آل طياش شخص واحد في القضاء، وعرض عليه صاحب مكتب محاماة التعاقد معه لتقديم استشارات وهو في منزله براتب

ضخم فأبى من ذلك، وعرض عليه أكثر من واحد من أبنائه الموافقة على فتح مكتب محاماة باسمه وهم يعملون فيه فأبى ورفض!!

عودته إلى جازان:

بعد تقاعده عن العمل النظامي عاد إلى منطقة جازان وسكن في بيته في العشيما في مدينة جازان وبيته الذي في صامطة، وصار جدوله اليومي بين البيت والمسجد واستقبال الضيوف الذين يأتون للسلام عليه، ويذهب بعد العصر لمزرعته، وقد زرته فيها عدة مرات، فكان يأنس فيها حيث أن فيها إبل وبقر وغنيمات، ويزرع فيها أعلاف للحيوانات، وقليل من الفواكه والخضروات، ولا أغادر من مزرعته إلا بهدية من الفواكه والخضروات، وذات مرة لم يكن موسم نضج الفاكهة فأمر العامل أن يأخذ تيسا ويضعه في سيارتي فرفضت، فأقسم عليَّ أن آخذه لأولادي.

وكان الشيخ إذا جاء إلى صامطة يصلي معنا في مسجد الراحة الملاصق لبيته، ثم يذهب بعد العصر أو المغرب لزيارة أقاربه وأرحامه، ويمرّ عليهم بيتا بيتا، وإن كان المكان بعيدا ذهب على السيارة، فيواسي ضعيفهم ويعود مريضهم ويؤانس كبيرهم ويتعاهدهم، واستمرّ على ذلك حتى آخر حياته حينما كان يشقّ عليه المشي فكان يأمر أحد أولاده أن يدفع به الكرسي المتحرك لزيارتهم، بل إنه يصل أولادهم من بعدهم، وقد رأيته العام الماضي بعد أن صلى معنا العصر على الكرسي المتحرك أمر ولده عبدالكريم أن يذهب به إلى أبناء وبنات خالته أم إسماعيل بن محمد المدخلي شريفة بنت حسن للسلام عليهم ومواساتهم في وفاة قريب لهم.

كما كان يتواصل مع أصدقائه القدامى مثل زميله الشيخ عبدالله ابن قاضي صامطة في السبعينات الشيخ إبراهيم العمود، الذي يسكن في المنطقة الشرقية، ولا زال يتواصل معه حتى توفي قبل عامين.

وكان الشيخ إبراهيم لا يتخلف عن حضور الجنائز ويتعنّى لذلك خاصة إذا كان المتوفى من قرابته، أو من المعروفين له، ولا أنسى يوم وفاة والدتي فقد كان من أوائل من حضر وعزّى وشارك، وكذلك يوم وفاة الوالد، رحمة الله عليهم.

ومن ورع فضيلة الشيخ إبراهيم وتطبيقه للسنة أنه كان لايمشي في المقبرة بالحذاء، وإنما كان يخلعها عند باب المقبرة ويمسكها بيده، ولم أره في مرة من المرات وهو لابس حذاءه في المقبرة، وذلك عملا بحديث بشير بن الخَصَاصِية ـ رضي الله عنه ـ أنّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى رجلًا

يمشي بين القبور وعليه نعلان سِبتيتان فقال: (يا صاحب السّبْتِيَّتين ألق نعليك)، أخرجه أبو داود والنسائي وصححه الحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩١٣). قال ابن قدامة في المغني (٣/٥١٤): قال أحمد: إسناد حديث بشير بن الخصاصية جيد، أذهب إليه، إلا من علة.ا.هـ، وقال ابن عثيمين كما في مجموع رسائل ابن عثيمين، ١٧/٢٠٠-٢٠٢: أن المشي بين القبور بالنعال مكروه وخلاف السنة إلا لحاجة، كشدة حر، أو يكون في المقبرة شوك، أو حصى يؤذي الرجل فلا بأس به.

ومن ورعه أيضا أنه قدّم طلبا هو وصديقه الشيخ عبدالله بن أحمد مصلح الشعبي للحصول على قرض سكني من صندوق التنمية، وسألا عن مدة سداد القرض، فقيل لهما: خمسة وعشرون عاما، فقال الشيخ إبراهيم: إن هذا عمر طويل، وأخاف أن أموت ولا يزال القرض في ذمتي دينا، لا حاجة لي به، ثم تركه، وكذلك تركه الشيخ عبدالله.

عبادته وزهده وتواضعه:

كان الشيخ إبراهيم ذا عبادة وزهد وورع وتنسّك؛ ولم يكن ذلك ظاهرا عليه، ولا يحبّ إظهاره، ولا يعرف ذلك عنه إلا من عايشه عن قرب واطّلع على حقيقة أمره، ولم يكن يتحدّث عن نفسه ويمجّد إنجازاته ويشيد بأعماله، حتى أن مجلة العدل الصادرة عن وزارة العدل عرضت عليه إجراء مقابلة معه، كعادتها مع أغلب القضاة، فلم يُرْعِها بالاً، ولم تفلح محاولات إقناعه، ولم يستطع أحد أن يخوض غمار حياته ويستجلي بعض ما فيها إلا ما كان من الدكتور حسين بن حمد الدغريري ــ أستاذ النقد والبلاغة والأدب بجامعة جازان، والمهتم بتوثيق سيرة أهل العلم ـ فقد أجرى معه لقاء مصورا غير مطوّل بتاريخ ٦/٧/١٤٤٣هـ، لم يتحدث فيه الشيخ إلا قليلا لأنه أول مرة في حياته يقف أمام وسائل الإعلام، ولذا فإن كثيرا من حياة الشيخ وعبادته في حيّز الخفاء، ولعلي اذكر هنا مقتطفات سريعة عن عبادته وزهده بحسب ما يتوفر لديّ وقت كتابة هذه العجالة.

فقد كان الشيخ معظّما لشعائر الله مواظبا أشدّ المواظبة على الفرائض حريصا عليها، من أول حياته، وكان في أول حياته وهو طالب في مدرسة عمّه يسابق زملاءه على رفع الأذان في مسجد الراحة، وأكثر شخص كان يتسابق معه هو الشيخ هادي بن حسن شرفي.

ولم يكن الشيخ إبراهيم يتأخر عن الصلوات أو ينام عنها، حتى في مرضه الأخير فقد كان يأمر أولاده بأن يوصلوه إلى المسجد على كرسي متحرك ليحضر صلاة الجمعة والجماعة إن كان في بيته في جيزان وإن كان في بيته في صامطة.

وأما النوافل فإنه قد ضرب فيها بحظّ وافر في كل المجالات؛ فهو مواظب على السنن الرواتب وغيرها، ولقد رأيته ذات يوم قبل صلاة الظهر والوقت لا يتسع لصلاة السنة القبلية أربع ركعات؛ فرأيته صلى أربع ركعات خفيفة وكفاه الوقت.

وكان له حظّه من صلاة الليل والتهجد كما يتحدث بذلك أهل بيته، ويذكر الشيخ عبدالله بن أحمد الشعبي أنه رافق الشيخ إبراهيم في السفر فما كان يترك قيام الليل.

وحينما يكون الشيخ إبراهيم في مكة كان يؤدي صلاة التراويح والقيام في رمضان في الحرم، وكان يصليها بطمأنينة وخشوع، وكان لا يرتاح في أثناء الصلاة كما يفعل بعض من هم في سِنّه، وإنما يؤدي الصلاة كاملة وهو قائم لا يتّكئ على شيء.

ومن أعمال الشيخ إبراهيم الخيرية أنه خصص أرضا من أملاكه في صامطة وبنى عليها مسجدا جميلا، أشرف على تصميمه وتنفيذه سبطه المهندس شاكر بن محمد بن ناصر خلوفة وبعض أبناء الشيخ إبراهيم، وحينما اكتمل دعاني الشيخ لزيارته فيه، ودعى بعض أصدقائه وحضرنا صلاة العشاء، وتجولنا في المسجد، ثم لما أردنا المغادرة أبى الشيخ علينا أن نذهب إلا أن نتعشّى، وتعشينا في باحة المسجد، ودعونا له وانصرفنا، وكان افتتاح هذا المسجد بتاريخ ١٤٤٢/٠٧/١٠هـ.

وأما الصيام فكان محافظا على صيام النافلة مثل: التاسع والعاشر من المحرم، والستة الأيام من شوال، ويوم عرفة، والأيام البيض من كل شهر، ولم يترك ذلك حتى في مرضه الأخير وهو ضعيف الجسم ويحتاج جسمه إلى السوائل.

وأما القرآن الكريم فقد حفظه عن ظهر قلب وأكمله على كِبَر، وأتقنه وصلى به في صلاة التراويح والقيام، وكان دائم القراءة له؛ وقد أخبرني الشيخ عبدالله بن أحمد مصلح الشعبي أن الشيخ إبراهيم كان يختم كلّ أسبوع في أيامه العادية في السنة، أما في شهر رمضان فقد كان يختم في كل يوم ختمة، وكان يختم ختمتين في صلاة التراويح والقيام - كما سبق ذكره -، يقول الشيخ عبدالله: وكنت أستمع له الأجزاء التي سيقرأ بها في صلاة التراويح والتهجد فلا يكاد يخطئ في آية، وقال الشيخ عبدالله: وهو الذي شجعني على حفظ القرآن الكريم.

وقد كان هذا دأبه في جازان، أما حينما انتقل إلى مكة فقد كان يأتي إلى الحرم كل يوم، ويجلس فيه للتعبد، وبخاصّة صلاة الفجر فقد ألزم نفسه بصلاتها فيه.

أما إذا جاء شهر رمضان فإنه يستأجر شقة سكنية قريبة من الحرم طوال شهر رمضان، وكان

لا يأتي هذه الشقة إلا للنوم أو قضاء الحاجة، وبقية وقته في الحرم، ويستضيف أصحابه وأصدقاءه فيها، مثل الشيخ محمد بن علي الشعبي، والأستاذ أحمد بن هادي بن أحمد الشعبي، وغيرهما.

وله سُفرة للإفطار في سطح الحرم، يقوم عليها أبناؤه وبخاصّة ابنه عبدالرحمن، وكان يقدّم فيها أصناف التمور والمأكولات الخفيفة والشوربات والعصيرات التي تأتي من بيت الشيخ ومما يشترى من السوق، ويتناول الإفطار مع الشيخ عدد من العُمّار والمعتكفين من السعودية والشام ومصر واليمن والمغرب والهند والباكستان وبنقلادش وإفريقيا وبعض دول أوربا وغيرها، وكان بعضهم يستمر طوال الشهر ويقابله أبناء الشيخ بكل ترحيب وبشاشة، وربما تحدث الشيخ مع هؤلاء الغرباء وآنسهم وناولهم المأكولات وأصرّ عليهم بتناولها، وكنّا إذا جئنا للسلام عليه ألزمنا بالإفطار معه، وبعد وقت من الإفطار يقدم لنا حليب الماعز الساخن المحلى بالعسل، وكان يعجبه، وأحيانا حليب البقر، وكان أحسن هدية نحرص على إهدائها له أعواد السواك، وكان يفرح بها ويوزعها على من يلقى، وبحمد الله فلا زالت هذه السُّفرة المكية عامرة إلى اليوم.

وقد كان الشيخ إبراهيم باذلا للنصح لكلّ أحد، وهذه الخلّة أشاد بها فضيلة الشيخ خالد بن أحمد بشير (رئيس محكمة الاستئناف بجازان) وقال بأن الشيخ إبراهيم قد تميز بأنه ينصح من هو أصغر منه ومن هو من أقرانه ومن هو أكبر منه بأسلوب هادئ حكيم، ومصداقا لكلام الشيخ خالد فإن الشيخ إبراهيم قد رأى مني ذات يوم أني قرأت في صلاة الفجر بسورتين ليستا من النظائر التي كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرن بينها، فانتظر حتى حان خروجي من المسجد وكلمني برفق وأدب!! ثم اغتنمت الفرصة وتناقشنا حول هذه السور، فطلب مني أن أكتبها له مجتمعة، فرجعت إلى البيت وكتبتها وجئت بها صلاة العصر، وعند خروجه من المسجد ناولته الورقة، فقرأها وفرح بها ووضعها في جيب الكوت من الداخل محتفيا بها.

وذات مرة قرأت عليه من كتاب فيه ذكر بعض مشايخه؛ لكن مؤلف الكتاب بالغ في كلامه واستهواه الأسلوب الأدبي حتى أخرج المعلومات عن حقائقها، فأنكر الشيخ إبراهيم تلك المبالغات ولم يقرّها، وقال: هذا الكلام غير صحيح.

كما كان الشيخ إبراهيم شديد التواضع، وكان إذا جاء إلى صامطة لا يتقدم إماما للصلاة إلا إذا لم يوجد غيره، ولقد حاولت مرارا أن أقدمه للصلاة إماما فرفض، وكان يأمرني أن أتقدم إماما، حتى بحضرة الإمام الراتب.

وقد كان معروفا بتواضعه من أول حياته، ومواقفه كثيرة مع كبار السنّ والعجائز والضعفاء والفقراء، حتى لو لحقه ما لحقه من المشقة، وقد حصلت له قصة ذات مرة أخبرني بها ولده محمد؛ حيث قال: قبل حوالي خمسين عاما كنت مع والدي ـ رحمه الله ـ لإيصال بعض الأقارب من النساء من العشيماء إلى المضريبة ـ وهما حيان في مدينة جازان ـ وعندما اقتربنا من سكن هؤلاء الأقارب أشارت أكبرهن سنا وهي الجدة سليمة بنت طاهر بن علي فتحي أشارت إلى الوالد ألا يدخل في هذا الشارع المظلم، وفي نفس الوقت فيه ارتفاع مزعج وضيق في الطريق؛ لكن الوالد أشفق عليهن أن يمشين على أرجلهن، فسار في هذا الطريق، وعلى يمين والدي جدار شاهق حجارته ضخمة جدا، فكنت أحمل هم العودة، وفعلا لم نجد في الأعلى متسعا لتدوير السيارة فتحتم الرجوع للخلف، وهذا أصعب شيء على والدي، طبعا أنا لا أسوق السيارة لصغر سني، وأثناء الرجوع أمرني والدي بالنزول لأكون دليلا له؛ ولكن أثناء رجوعه اصطدمت سيارته بحجارة كانت ملاصقة للجدار العملاق، وهذا الجدار يريد أن ينقض، فانقلبت سيارة الوالد على الجهة اليمني التي كنت أنا فيها، ثم فجأة سمعت بركانا ضخما وغبارا شديد نتيجة سقوط الجدار على والدي، وكنتُ أصيح وأقول للناس: والدي مات، وجاء كل من رأى وسمع ـ وهم يحبون والدي رحمه الله ومن لا يحب والدي ـ فبقي المشهد الرهيب ونحن ننتظر، وفي حسابي البشري أن والدي قد مات، إذ كيف يسلم من هذه الحجارة ونافذته مفتوحة؟! ونسيت ساعتها لطف الله، ونسيت أن صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وفجأة ينتهي المشهد بخروج والدي من النافذة سليما معافى، ثم جاء المرور والدفاع المدني وسحبت السيارة من مكانها وهي مائلة ميلانا شديدا لليمين، وكل من رآها قال مات الشيخ إبراهيم خلوفة!! وفي هذه الليلة جاء الشيخ محمد بن علي الشعبي ـ شيخ أبي وصديقه وزميله ـ ورأى السيارة فقال: الشيخ مات، أنتم تكذبون عليَّ، فما اطمأن إلا بعد أن رآه في البيت.

ومن تواضع الشيخ إبراهيم أنه كان يلاطف زملاءه وأصدقاءه القدامى ويسأل عنهم ويحتفي بهم إذا لقيهم، مثل: العم الشيخ علي بن محمد راشد اليامي، والخال أحمد بن إبراهيم الحملي، والشيخ طاهر بن محمد ماطر رضوان، وكانوا يفرحون به إذا قابلوه.

أمراضه:

كان الشيخ إبراهيم خفيف الجسم قليل الأكل من أول حياته، معتنيا بأكله وصحته بدون تكلف، ولا يكاد بيته يخلو من الألبان الطبيعية والسمن والعسل والمأكولات الطبيعية، وكان لا

يشتكي من شيء إلا الأمراض العارضة، وفي السنوات الأخيرة دبّ إليه كِبَر السن، وبدأ يشتكي من آلام في مفاصله وأسنانه، وكان يستخدم العلاجات الطبيعية، ولا يحبذ الذهاب إلى المستشفيات.

وفي شهر رمضان من عام ١٤٤٠هـ خرج من بيته إلى المسجد لصلاة الظهر وكان الجوّ حارّا والشمس ساطعة، فركب السيارة يقودها للمسجد؛ لكن السيارة انفلتت منه وهو لا زال عند بيته ووقعت في حفرة، ونزل منها متأثرا ببعض الآلام، وقد بقي بضعة أيام لا يستطيع الخروج من البيت، ثم تحامل على نفسه وصار يذهب إلى المسجد مع أولاده في السيارة، وفي شهر محرم من عام ١٤٤٢هـ قام في البيت يريد الوضوء فسقط، فأصابه كسر في أعلى الفخذ، ونقل إلى المستشفى بجازان وتم تحويله للمستشفى التخصصي بجدة، وهناك أجريت له عملية ونجحت بحمد الله؛ وعاد إلى جازان لكن صحته لم تعد كحالتها الأولى، ولا زالت العلل تنتابه والأمراض تعتريه ويصرّ أولاده على الذهاب به إلى المستشفى، ويتم تنويمه لبضعة أيام، ويتحسّن قليلا ويعود إلى البيت، فقد تم تنويمه في المستشفى العام بجازان وعُدته وذات مرّة تحدثت معه عن مشايخه وسيرتهم العطرة، ولما هممت بالانصراف استأذنته فأبى أن يأذن لي وقال لي: اجلس عندي باقي ما شبعت منك!! وقال لابنه عبدالكريم: صبّ القهوة وقرّب التمر، وأمره أن يطيّبني، ومكثت عنده ما شاء الله ثم انصرفت.

وتم تنويمه أيضا في مستشفى الأمير محمد بن ناصر بجازان بسبب قصور في بعض وظائف الجسم وعُدته مع إخوتي عبدالله وعبداللطيف وعبدالعزيز، ومرة أخرى عُدته أنا و ابن العم فضيلة الدكتور محمد بن هادي المدخلي وأخواه عبدالودود وعمر، وقد تحدث معنا واستبشر بنا، وذكر لنا شيئا من ذكرياته وبكى وبكينا معه تلك الليلة، وكان أغلب أولاده عنده.

ومن أخريات زياراتي له حينما انتقل إلى بيته الجديد في شمال جيزان، فقد زرته مساء يوم الأحد ١٤٤٥/١/٢٧هـ وكان معي ابن العمّ فضيلة الدكتور محمد بن هادي المدخلي وأخواه عبدالودود وعمر، وقد احتفى بنا أبناء الشيخ: هادي وعبدالعزيز وعمر وشاكر، وكان الضعف بيّنا على الشيخ إبراهيم، وقد تحدثنا معه ولم نُطِل ثم استأذنّا.

وفي آخر زيارة زرته سألته عن بعض الأحداث التي وقعت أثناء عمله في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عام ١٣٧٣هـ فأفادني بها إفادة تامّة، وسألته عن أمور بشأن خالته حَسِيْن فشرحها لي بالتفصيل، وحينما هممت بالانصراف وودعته قال لي: سامحني سامحني!!

ومما لاحظته خلال زياراتي للشيخ في جيزان أو صامطة أن وعيّه وإدراكه وضبطه للمعلومات ومعرفته للزوار لم يتغير حتى مات، ولاحظت أنه يكرم كلّ من زاره، فكان يقدم لنا القهوة والتمر مغموسا في زيت السمسم والفواكه والحليب، ولاحظت أيضا أني لم أزره إلا وجدت أبناءه حوله يخدمونه ويرعونه ويكرمون ضيوفه، كما أني لاحظت أنّ أهل بيته يعتنون به غاية العناية؛ فمكانه مرتّب وثيابه ناصعة البياض، وتفوح منه رائحة دهن وبخور العود رغم مرضه وعجزه.

الوفاة:

في يوم الخميس ٦/٣/١٤٤٥هـ أصاب الشيخ إبراهيم تعب شديد وهو في بيته في جيزان فذهب به بنوه إلى المستشفى العام فقرر الأطباء تنويمه في العناية المركزة نظرا للضعف الشديد التي اعترى جسمه، وهاتفني ابنه عبدالكريم وأخبرني بذلك، وبات الشيخ في المستشفى ليلة واحدة، وفي يوم الجمعة جاءه العوّاد من القرابة وكانت حالته حرجة، وفي آخر ساعة من يوم الجمعة ٧/٣/١٤٤٥هـ قبيل غروب شمسه فاضت روح الشيخ إلى بارئها، وكانت السماء هطّالة بالمطر.

والوفاة في هذا الوقت مما يرجى أن يكون حسن خاتمة، فقد ورد من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر)، أخرجه أحمد والترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٤٩)، وأحكام الجنائز (ص ٣٥).

وكان عُمْرُ الشيخ عند وفاته في التسعين عاما، قضاها في العلم والقضاء ومع القرآن، وقد دفن في عصر اليوم التالي لوفاته - يوم السبت - في مدينة صامطة حيث ولادته ونشأته ودفن قرابته، في مقبرة الشيخ محمد بن أحمد مساوى (الفتاحية) بمدينة صامطة، قريبا من قبر عمّه الشيخ ناصر الواقع في جزء من أرضه في الركن الشمالي الشرقي من هذه المقبرة، وقد حضر تشييع جنازته عدد كبير من أرجاء المنطقة وخارجها.

كما حضر للعزاء على مدى ثلاثة أيام ما لا يحصى من البشر، من زملائه ومحبيه وقرابته، وأبناء أصدقائه، وفي مقدمتهم فضيلة الشيخ محمد بن محمد شريم الشعبي (عضو المحكمة العليا)، وفضيلة الشيخ أحمد بن مقبول الحكمي (عضو المحكمة العليا سابقا)، وفضيلة الشيخ علي بن شيبان العامري (رئيس محكمة الاستئناف بجازان سابقا)، وفضيلة الشيخ منصور بن حمود بن حسن آل خيرات (رئيس محكمة الاستئناف بجازان سابقا)، وفضيلة الشيخ إبراهيم بن الخلاف

النجمي (رئيس محكمة الاستئناف بمكة المكرمة سابقا)، وفضيلة الشيخ خالد بن أحمد بشير معافا (رئيس محكمة الاستئناف بجازان حاليا)، أما قضاة الاستئناف وقضاة المحاكم الأخرى المتقاعدون ومن هم على رأس العمل فعددهم كثير.

ومن أمثلة الوفاء وصدق الإخاء مجيء زميله وصديقه فضيلة الشيخ أحمد بن محمد بشير معافا، الذي قدم من منطقة عسير مع ظروفه الصحية الصعبة، وواسى أبناء الشيخ وقرابته وأثنى عليه وذكر بعض مآثره، حيث ربطتهما علاقة وثيقة من السبعينات الهجرية أثناء دراستهما في المعهد العلمي في صامطة، ثم في كلية الشريعة بالرياض، ثم جمعهما القضاء في محكمة جازان، ثم في محكمة التمييز بمكة المكرمة.

ومن الوفاء وردّ الجميل أن أبناء الشيخ إبراهيم قاموا بزيارة لفضيلة الشيخ أحمد بشير في منزله في مدينة ضمد، مساء يوم الأربعاء ١٢/٣/١٤٤٥هـ، فاحتفى بهم وأقام لهم مأدبة كبيرة ـ كما هي عادته مع جميع من يزورونه ـ.

زوجاته وذرّيته:

خلّف الشيخ إبراهيم ذريه، حفظ بعضهم القرآن الكريم، ولهم جهود دعوية وخيرية، وحصل عدد منهم على مؤهلات أعلى من البكالوريوس، والبعض منهم في حقل التعليم، ومنهم أئمة وخطباء للمساجد، وهم في الوظائف المدنية والعسكرية، ومنهم من المهتمين بالأدب والشعر، وبعضهم قد بلغ سنّ التقاعد، وغير ذلك.

وهم من ثلاث زوجات.

وأولاده بحسب ترتيب ولادتهم هم:

أحمد، ومحمد، وحسن، وعلي، وعبدالله، وناصر، وعبدالكريم، وعبداللطيف، وفيصل، ويحيى، وعبدالرحمن، وإسماعيل، وهادي، وعبدالعزيز، وعمر، وشاكر، وخيرات، وعبدالرحيم، وعبدالمجيد، وعبدالغني، وخلوفة، وحافظ.

رثاؤه:

كُتبت في الشيخ إبراهيم قصائد الرثاء، وأبّنه الأدباء، وتحدث عنه الأصدقاء.

وفي إحدى ليالي مجلس العزاء حضر الدكتور الأديب علي جمال الدين بن أحمد هيجان متعنّيا من مكة المكرمة، وارتجل كلمة تقطر شهْدا ورِقّة وبلاغة، أبحر فيها في مآثر الشيخ إبراهيم وفضائله، بأسلوب فريد بديع.

أما الشعر: فقد صاغ الشاعر الأستاذ أحمد ابن فضيلة الشيخ إبراهيم رثائية في والده جعل عنوانها: (حِلٌ وارتحال)، قال فيها:

كل ابن أنثى إذا ماحَلَّ مُرتحلُ ... لاطبَّ يُجدي إذا يدنو بهِ الأجلُ
هي الحياةُ سبيلٌ نحن نعبرها ... يحفها الجُهدُ والأحزانُ والعللُ
هي الحياةُ بها الآمالُ مترعةٌ ... مذاقها المرُّ غطا طعمهُ العسلُ
مامن نعيمٍ به الأحزانُ عاصفةٌ ... إلاَّ هباءً.. به الأجفان تكتحلُ
ياخالق الكون لُطفاً منك ننشدهُ ... أنت الملاذُ إذا ضاقت بنا الحيلُ
في كل يوم لنا حِبٌ.... نودعه ... وظننا فيك... ربي حَفَّه الأملُ
واليومَ واحسرتى قد غاب والدنا ... فكلُّنا ياإله الكونِ... ممتثلُ
لا نبدِ يأساً ولا ندعو بمندُبة ... لو سال دمعُ عزيزُ سائحٌ هَطِلُ
هذا قضاؤك لا منجى لحاذره ... مهما تعدد في أقدارنا السُّبلُ
قد كان فينا مثالاً يُحتذى وأباً ... تجمعت في أبينا إخوتي المُثلُ
دينٌ وعلمٌ كذا صبرٌ ومكرُمةٌ ... منذو يفاعة سنٍ ما به خللُ
ها حلَّ ضيفاً على مولاه يرحمه ... فاكرم إلاهيَ من قَلَّت به الحيَلُ
واجمعنا يا خالقي في أعلى منزلةٍ ... في مُستقَرٍ به الأتراحُ تندملُ
يا إخوتي واجتماع الشملِ يدفعنا ... نحو الكمالِ وحبلُ الوصلِ متصلُ
لا فرّق الله شملاً نحن ننشدهُ ... إن التفرقَ.. في أنيابهِ الزَّللُ
واختم لنا يا إلهَ الكونِ... خاتمةً ... يامن بجودك كل الفضلِ يكتملُ

أحمد بن إبراهيم خلوفة طياش المباركي، الأحد الموافق ٩/٣/١٤٤٥هجرية.

ومما وقع بيدي أيضا من القصيد قصيدة للشاعر الأستاذ يحيى بن إبراهيم بن حسن الشعبي، صاغها من واقع محبة الشيخ إبراهيم له ولأبيه وجدّه: عنوانها: (شيخ المكارم) قال فيها:

يـا ربِّ لطفـكَ أنـت الماجـدُ الأعلـى ... وقـد تنـاءت بنـا أقـدارك الجُلّـى
وأبعدتنـا عـن الأحبـابِ مزريـةً ... بنـا فخفـفْ علينـا صدمـةً تَصلـى
وأنزلـنْ رحمـةً تغشـى مرابعَنـا ... تغشى الثكالى وتغشى الدارَ والأهْلا
وتقتفـي كلّ جـرحٍ بالسُّـلوِّ وقـد ... أوهـى اصطبارَ قلـوبِ القوم ما أفلى
فَقْـدُ الكبـارِ كبـارِ الشـأنِ فاجعـةٌ ... أليمـةُ الوقْـعِ مثـلُ الطعنـةِ النَّجْـلا
قالـوا تـوفيَ إبراهيـمُ قلـتُ متـى ... قالو ا قبيلَ غروبِ الشمسِ كمْ أبْلى!
وأسْـلمَ الـروحَ للبـاري مطَهَّـرَةً ... بـالآي والذكْـرِ والأوراد إذْ تُتْلـى
شـيخُ المـكارمِ والأفضـالِ نائيـةً ... عن كلِّ شـكرٍ سوى من ربِّه الأعْلَى
شـيخُ العدالـةِ والإنصـافِ يصقلُـهُ ... كالسيفِ شرعٌ على وجدانِه اسْتولى
شـيخُ التبتـلِ والأسـحارِ عامـرةً ... بالذكـرِ والحمـدِ واسـتغفارِ مَـنْ أَوْلَى
شـيخُ القيـامِ مـع الإصبـاحِ تعرفُـهُ ... في وجهِه مشرقٌ كالشمسِ بل أحْلى
وروحُـهُ الْتحْتفـي بالليـلِ قائمـةً ... في يومِها تحتفي عندَ الضُّحى جَذْلَى
عرَفْتُـه باسـمًا إنْ زُرْتُـهُ جَـذِلاً ... يَفْتَرُّ عـن واضـحٍ كاللؤلـؤِ الأجْلـى
إنْ أنْسَ لا أنْسَ قـولًا كانَ قائلَـهُ ... لا تقطَعَنِّـي أيا ابْـنَ الصاحبِ الأغْلَى
زرني فـإني متـى زُرْتَ ارتويتُ ففي ... نجـواكَ أبصِـرُ حبِّـي الوالـدَ الخـلّا
آهٍ علـى الآهِ تفـري قلـبَ مرسـلِها ... تُحيلُـهُ جمـرةً تسـتدرجُ العقْـلا
يـا ربِّ رُحمـاكَ.. إبراهيـمُ كان سـنًا ... يسـتنبتُ الخـيرَ في أرواحِنـا نُبْـلا
يسـعى إليـكَ بعـزمٍ أنـتَ تعرفُـهُ ... حبـاً وبـذلًا وزهـدًا يبتغـي وصـلا
أجزلْ لـهُ في رحـابِ الخُلْـدِ مَكرُمـةً ... واجْعلْهُ يا ربِّ في فردوسِـها الأعْلى

شعر/ يحيى بن إبراهيم حسن شعبي، ١٢/٣/١٤٤٥هـ.

خاتمة:

أختم هذه الوريقات بالتنويه عن بعض الأمور:

١ـ ما كتبته هنا هو رؤوس أقلام وذكريات كانت حبيسة الذهن وحديث المجالس خشيت عليها من النسيان والضياع، وتذاكرت بعض أحداثها مع الشيخ عبدالله بن أحمد مصلح، وسبط الشيخ الأستاذ ناصر بن محمد بن ناصر خلوفة، وبعض أبناء الشيخ ومحبيه؛ وإلا فسيرة الشيخ إبراهيم عطرة ومآثرة جمّة وهي بحاجة إلى دراسة متأنية من عدة جوانب، ومنها: الجانب الأسري، والعلاقات الاجتماعية، والجانب القضائي، عبر أحكامه في جازان ومكة المكرمة.

٢ـ إن كان لأحد مِنّة على الشيخ إبراهيم فهو عمّه فضيلة الشيخ ناصر بن خلوفة المباركي، ثم فضيلة الشيخ محمد بن علي الشعبي، فقد كانا له كلّ شيء في حياته، وكان هو لا ينساهما.

٣ـ جميع من يعرف الشيخ إبراهيم يشعر كأنه صديق له، فليس بينه وبين أحد عداوة، ولم يدخل في صراعات أو جدالات مع أحد؛ لكنّ أعزّ أصدقاء الشيخ إبراهيم في مدينة جيزان ابن عمته فضيلة الشيخ حسن بن حمود بشيري (توفي عام ١٤٤٢ هـ)، ورفيق دربه فضيلة الشيخ عبدالله بن أحمد مصلح الشعبي، وفي مكة فضيلة الشيخ حسن بن زيد النجمي، وفضيلة الشيخ أحمد بن بشير المعافا، وفي صامطة الشيخ محمد بن ناصر خلوفة المباركي، وأزعم أني منهم كما بلغني ذلك من أهل الشيخ.

٤ـ أعجبتني جملة لفضيلة الشيخ خالد بن أحمد بشير المعافا (رئيس محكمة الاستئناف بجازان) بشأن الشيخ إبراهيم، حيث قال: (لا أظن أن أحدا أجمع الناس على محبته مثل محبتهم للشيخ إبراهيم)، وصدق والله.

٥ـ من تواضع الشيخ إبراهيم أنه لم يتصدر للإفتاء مع قدرته على ذلك، وكان يحيل على غيره حتى في الأمور اليسيرة، وقد كان له مكتبة عامرة بأمهات الكتب في عدة فنون.

٦ـ شرع أخي الشيخ عبدالكريم ابن الشيخ إبراهيم في كتابة سيرة والده، وأنا أشجعه على ذلك، لأن هذا النوع من الكتابة سيكون أدقّ وأشمل.

٧ـ سمعت قبل فترة أن الشيخ محمد ابن الشيخ إبراهيم سيتولى كتابة سيرة جدّه فضيلة الشيخ ناصر، وهو من أجدر من يكتب في ذلك، خاصة مع وجود عدد من أبناء وبنات الشيخ ناصر على قيد الحياة.

ختاما أقول بأني بعد أن كتبت هذه الأوراق عرضتها على فضيلة الشيخ عبدالله بن أحمد مصلح الشعبي، وعلى عدد من أبناء الشيخ إبراهيم فأفادوني ببعض الملحوظات، فعدلتها، ورغبوا في نشرها ليطلع عليها من يستفيد منها من أقارب الشيخ ومحبيه، فاستحسنت ذلك.

رحم الله فضيلة الشيخ إبراهيم خلوفة ووالدينا ووالديه ومشايخنا، وغفر لنا ولهم، ورفع درجاتهم وجمعنا بهم في الفردوس الأعلى، وبارك الله في ذرياتنا وذرية الشيخ إبراهيم وأصلح حالهم وجمع شملهم ورزقهم البرّ والتوفيق لكل خير، وصرف عنا وعنهم كلّ شرّ وبلاء وفتنة، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

وكتب: أبو محمد عبدالرحمن بن عمر بن أحمد المدخلي. ١٣/٣/١٤٤٥هـ، جازان.



مسجد الشيخ/إبراهيم بن محمد خلوفة المباركي